

## الإصلاحات والأزمة المغربية

تحركت السلطة الحاكمة بالمغرب لتطوير قوة البلاد وجعلها قادرة على المنافسة، لكن هذه الإصلاحات باءت بالفشل مع ازدياد الضغط الأوربي.

### ✓ الإصلاحات فترة حكم محمد الرابع والحسن الأول

- الإصلاحات الإدارية والعسكرية والاقتصادية: هدفت السلطة الحاكمة عهد كل من محمد الرابع والحسن الأول إلى الإصلاحات الإدارية للتخلص من الاستبداد الذي تشكو منه الساكنة على جميع المستويات، وعلى رأسها ظاهرة الارتشاء التي استفحلت بين موظفي المالية، إذ تم تنظيم طريقة استخلاص الواجبات الجمركية وتعيين موظفين لجمع الجبايات وآخرين لمراقبة أموال الدولة، وقد حاول الحسن الأول القضاء على نفوذ القواد الكبار بتفتيت نفوذهم التراي حتى لا يتأتى لهم مخالفة الأوامر المخزنية، كما تم تحديد اختصاصات الوزراء والصدر الأعظم بوصفه مكلفا بالشؤون الداخلية. أما الجهاز الحكومي فعمله كان ناقصا بسبب تنقلاته رفقة الرحلات التي كان يقوم بها السلطان.

أما على مستوى الإصلاحات العسكرية، فبعد الهزيمة النكراء التي تلقاها الجيش المغربي خلال معركتي إسلي وتطوان تم التفكير في إنشاء جيش نظامي لمساعدة جيش القبائل، وتأسيس معامل للأسلحة بكل من مراكش وفاس، ومن أبرز ما قام به الحسن الأول إرسال بعثات طلابية إلى المدارس العسكرية ومعامل صناعة السلاح الأوربية، وجلب كذلك مدربين عسكريين من أوربا، كما عمل على تعزيز البلاد بأسطول بحري لصيانة الشواطئ.

أما على مستوى الإصلاحات الاقتصادية والمالية، فقد تم تأهيل الموانئ وطرق المواصلات، وخاصة الطريق الرابط بين (فاس- طنجة) و (مراكش- الجديدة)، والتشجيع على الزراعة الصناعية كالقطن وقصب السكر والشمندر، علاوة على محاولة توفير عملة قارة للبلاد، غير أن الإصلاحات النقدية لم تتحقق بسبب المضاربة الأجنبية وخيبة نتائج المشاريع الإصلاحية التي تم الإقدام عليها.

- أسباب فشل الإصلاحات: يعود فشل الإصلاحات التي قام بها المغرب إلى الأسباب الآتية:

\*عدم توفر موظفي الإدارة المغربية على الخبرة، زيادة على ضعف تداير التنظيم الحكومي.

\*عدم إدراك الرأي العام فائدة الإصلاحات، زيادة على تضليله من لدن الملاكين الكبار وأصحاب الطرق باعتبار أن الإصلاحات بدع تخالف الإسلام.

\*مضايقة الدول الأوربية لكل الأعمال التي ستعود على المجتمع المغربي بالنعف، وكانت فرنسا وإسبانيا من رواد معارضة الإصلاح، وقد عملتا كل ما في جعبتهما حتى تكون دول الجوار بشمال إفريقيا ضعيفة وغير قادرة على مضاهاتهما، وقد حاول الحسن الأول التغلب على هذه المعوقات، حيث وجه بوصلته اتجاه بريطانيا التي كانت تؤيد مبدأ الإصلاح لكن هذه الخطة باءت بالفشل بتدخل من الدول الأخرى التي كانت متوجسة من تزايد نفوذ إنجلترا، بعدها عاد للتعاون مع كل الدول للنهوض بالمغرب، لكن نتائج مؤتمر مدريد جاءت مخيبة للأمل، وصبت كلها ضد مصالحه، على إثرها لجأ المغرب إلى الاعتماد على الإمكانيات المحلية، هذه الإمكانيات التي لم ترق للقضاء على المشاكل الجوهرية.

رغم كل ما سبق ذكره فالمغرب استفاد كثيرا من الصراع الدائر بين الدول الاستعمارية حول المصالح، إذ حافظ على وحدة واستقلال البلاد، لكن بعد وفاة الحسن الأول سنة 1894م تغيرت الأوضاع.

### ✓ إصلاحات المولى عبد العزيز، ومحاولة السيطرة عليه من طرف فرنسا

- أزمة وراثة العرش عهد المولى عبد العزيز: تعاقب السلاطين على حكم المغرب خلال القرن التاسع عشر بدون مشاكل، لكن فترة تولي المولى عبد العزيز الحكم (1894م-1907م)، شابتها بعض المشاكل لكونه تولى الملك وعمره لا يتعدى 14 سنة، إذ لم تتم البيعة بالطريقة المتعارف عليها، بل قام بأحمد بمبايعته بدون استشارة العلماء وأعضاء السلطة للإنفراد بالحكم.

بعد وفاة أبا أحمد وتقلد المولى عبد العزيز زمام الأمور التي لم يكن مهياً لها من ذي قبل لصغر سنه، استغل بعض الأشخاص هذه الظرفية، فخرجوا عن الطاعة ومن بينهم بوحمارة الذي ادعى أنه الابن البكر للسلطان المولى الحسن الأول، وأنه من له الحق لتولي العرش، وقد اتخذ شرق المغرب مركزاً لنشر فتنته، وذلك من سنة 1902م إلى حدود سنة 1909م، بعد أن كان يزوده جيش الاحتلال المرابط بالجنوب الجزائري بالمساعدات المالية والعسكرية.

- انعكاسات الإصلاح الجبائي والاقتراض على الوضع المالي بالمغرب: ساهم صغر سن المولى عبد العزيز بعد توليه الحكم وخبرته القليلة بشؤون التسيير في الاندفاع والتطلع للإصلاح والتجديد، لجعل دولة المغرب تسير الركب الأوربي، الشيء الذي استغله مستشاروه من الأوربيين وأغرقوه في الإسراف عن المخترعات الأوربية، مما نتج عنه فراغ الخزينة.

لم يتقبل الشعب المغربي الإصلاحات التي قدم عليها المولى عبد العزيز، الذي كان يطمح إلى توفير الأمن وحماية الأجانب لقطع الطريق على المتدخلين في شؤون المغرب الذين أثقلوا كاهل الدولة بالتعويضات والغرامات. نأخذ على سبيل المثال اختراقه للحرم الإدريسي للقبض على أحد المتحصنين به بعد قتله لأحد المبشرين الأنجليز، مما جلب عليه سخط الشرفاء والسكان رغم ما بيّن لهم من توضيحات.

ومن أبرز الإصلاحات التي عزم المولى عبد العزيز على تنفيذها الإصلاح الجبائي المعروف بضريبة الترتيب، هذه الضريبة الجديدة التي تم الإعلان عنها قبل استقرار النظام وبدون اتفاق مع الدول الأجنبية، حيث رفضها العلماء والسكان بداعي تعويضها للضرائب الشرعية كالزكاة والأعشار. إذ لم تتوصل الخزينة بأية ضريبة لمدة سنتين، هذا الفعل الذي تزامن مع احتياجات الدولة للسيولة المالية، خلالها لجأ إلى سياسة الاقتراض من الخارج، مما فرض على السلطان قبول شروط بعض الشركات الفرنسية التي ستقضي لا محال على استقلال المغرب مثل ما وقع بكل من تونس ومصر. لقد صارت الموائى وإدارة الجمارك مراقبة من موظفين فرنسيين يقومون باستخلاص 60% من مردوديتها.

- محاولة فرنسا الانفرادية للسيطرة على المغرب: تعتبر فرنسا من الدول التي ساهمت في فشل الإصلاحات التي قام بها المولى عبد العزيز إلى جانب العوامل الداخلية خشية التفوق المغربي، وقد زادت حادثة فاشودة التي وقعت سنة 1898م بين فرنسا وأنجلترا في الحد من أطماعها في واد النيل واهتمامها بالمغرب، وقد فضلت تقديم تنازلات بجهات أخرى مقابل الإنفراد به، إذ أيدت سيطرة إيطاليا على ليبيا سنة 1902م، والتزمت بعدم مضايقة إنجلترا بمصر سنة 1904م، كما نزعّت إنجلترا

اتفاقية منها نصت على حرية التجارة المفتوحة لمدة 30 سنة، وتدويل مدينة طنجة، وقد وقّعت كذلك مع اسبانيا في نفس السنة اتفاقية تنص على بسط اسبانيا سلطتها على الشمال وكذلك بمنطقة سيدي إفني بالجنوب. هذه الاتفاقيات برهنت على قوة نفوذ فرنسا بالمغرب، الشيء الذي أثار غضب ألمانيا بعد إبعادها من تسوية قضية المغرب، فلجأت لمنافسة فرنسا ومعارضة كل عمل يمس مبدأ المساواة بين الدول داخل المغرب. كما هدفت ألمانيا إلى كسر شوكة التحالف الفرنسي/الانجليزي/الاسباني. على إثره عقد مؤتمر الجزيرة الخضراء سنة 1906م، الذي اعترف باستقلال المغرب ووضعه تحت ضمانات الدول المجتمعة مع إعطاء بعض الامتيازات لكل من اسبانيا وفرنسا من بينها تنظيم البوليس المغربي، وقد أوصى المؤتمر كذلك بتأسيس بنك مغربي تساهم فيه الدول المشاركة في المؤتمر، خصص ثلث أسهمه لفرنسا.

### ✓ بيعة المولى عبد الحفيظ للنهوض بأوضاع المغرب

- التّيقاف الشعب المغربي حول المولى عبد الحفيظ: ساهمت بنود مؤتمر الجزيرة الخضراء في تأجيج الوضع بالمغرب، حيث طالب الشعب بإسقاطها، كما وقع شرح بين الرعية والمولى عبد العزيز بسبب خرق فرنسا لاتفاق المؤتمر. وقد ازداد النفور بعد قتل الطبيب الفرنسي سنة 1907م من لدن أحد المغاربة بمراكش بعد استفزازه، هذا الاغتيال الذي اتخذته فرنسا مطية لاحتلال مدينة وجدة، ثم توسعت بالمنطقة الشرقية، وفي نفس السنة شرعت إحدى شركاتها في تشييد ميناء بالدار البيضاء وإنشاء خط سككي، فاعتبر المغاربة هذه الأعمال بداية غزو النصارى للبلاد، فناهضوهم وخربوا الخط السككي، وأحدثوا ثمانية قتلى في صفوف الأوربيين، حيث أرسلت فرنسا جيشها إلى ميناء الدار البيضاء واحتل المدينة، ثم توسع فيما بعد نحو الشاوية.

انتشرت الفوضى واجتمع السكان والعلماء حول بيعة المولى عبد الحفيظ الذي كان يكن عداء شديدا للأوربيين ومعارضة سياسة أخيه، هذه البيعة التي قدمت له من أجل القضاء على الاحتلال الأجنبي وإصلاح نظام الحكم.

تمكن المولى عبد الحفيظ في البداية بعد إرساء قواعد الحكم من القضاء على الفتان أبي حمارة، لكنه لم يتم طموحه لندرة السيولة المالية، وشد الخناق عليه من الدول الأجنبية، التي قايضت الاعتراف به بموافقته على مضامين بنود مؤتمر الجزيرة الخضراء، والإقرار بالديون التي تراكمت على أخيه المولى عبد العزيز، كما فرضت عليه فرنسا التخلي نهائيا عن ما تبقى من مداخيل الديوانة بعدما تقدم بطلب للاقتراض، زيادة على رفع اليد عن التبغ ومردودية الأملاك المخزنية.

أصبحت الفرصة سانحة أمام فرنسا لفرض سلطتها على المغرب بعد تدخلها العسكري واحتكارها لموارده.

- الحماية الفرنسية على المغرب: وقفت ألمانيا ندا أمام الاحتلال الفرنسي للمغرب، وحافظت على مصالحها وخاصة بناحية سوس، وكانت تهدف إلى بناء ميناء حربي بأغادير، وعندما نفذت فرنسا هجومها على مدينة فاس سنة 1911م، قامت ألمانيا بإنزال عسكري بميناء أغادير هادفة إلى نزع تعويض من فرنسا مقابل تنازلها عن المغرب، فتأتى لها ذلك من خلال معاهدة نونبر 1911م، إذ تنازلت لها فرنسا عن جزء من الكونغو.

فتح هذا التنازل الباب على مصراعيه أمام فرنسا، حيث أصبح المغرب منعزلا ، وكان المولى عبد الحفيظ محاصرا بقصره بفاس من الجنود الفرنسيين، نتج عن هذا الحصار إرغام السلطان على توقيع عقد معاهدة فاس بتاريخ 30 مارس 1912م بعد مفاوضات مصحوبة بالتهديد والوعيد دامت لمدة ستة أيام، ثم المعاهدة الفرنسية/الاسبانية التي تم توقيعها بمديرية بتاريخ 17 نونبر 1912م التي حددت مجال الحماية الاسبانية، بينما طنجة أصبحت منطقة دولية.